العدل مفتاح السعادة

(٣)

للاستاذ عبد المنصف محمود عبد الفتاح
واعظ مركز شبين القناطر

ومن أنواعه وأعلاها قيمة وأعظمها شأنا : عدل ولاة الأمور مع رعيتهم ، والحكام مع محكوميهم، والرؤساء مع مرءوسيهم ؛ لما يترتب عليه من سعادتهم، وصلاح أمورهم ، وانتظام أحوالهم . فمنزلة الحاكم من رعيته كمنزله القلب من الجسد (إذا صلح صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله) قال بعض الحكماء : « الناس تبع لأمامهم فى الخير والشر ، والناس على دين ملوكهم » ولما أتى عمر الفاروق رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين أنت أمين الله يؤدون إليك ما أديت الى الله فاذا رتعت رتعوا .

وروى أن أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور قدم مكة حاجا وبينما هو يطوف إذ سمع رجلا يقول : اللهم إنى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله : من الظلم والطمع . . فاستدعاه المنصور وقال له : لقد حشوت مسامعى بما أمرضنى وأقلقنى !! فقال الرجل : إنما عنيتك بقولى ، وقصدتك دون سواك . قال المنصور : وكيف يدخلنى الطمع و الصفراء والبيضاء فى يدى والحلو والحامض فى قبضتى ؟ قال الرجل : وهل دخل احد من الطمع مادخلك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابا ، واتخذت لك أعوانا ووزراء ظلمة آثمين : إن نسيت لم يذكروك ، وإن ذكرت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم رعيتك ، وابتزاز أموالهم ، فلما رأتك حاشيتك هذه قد استخلصت أفرادها لنفسك ،وآثرتهم على أمتك، قالوا : هذا خان الله فما لنا لانخونه ، فأتمروا على ألا يصل إليك من أخبار الناس ألا ما أرادوا ، وألا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمرا إلا أقصوه ، حتى امتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ! ! وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير ، فماذا تقول إذا أنتزع الملك الحق ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب ؟ هل يغنى عنك عنده شيء

مما كنت فيه ؟ فبكى المنصور حتى نحب ، ثم زهد وتنسك ، واستبدل بحاشيته الأعلام المرشدين فصلحت بهم الرعية ، واستقامت أمورها ،

ولذا كانت مسئولية ولاة الأمر عظيمة فى نظر الشريعة الاسلامية .عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من عبد استرعاه الله رعية فلم يحطها بنصحه الا لم يجد رائحة الجنة » وفى لفظ آخر عنه : « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حرم الله عليه الجنة » رواه البخارى ومسلم . وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم أن يطلب الامارة من ليس لها بكفء ، وإن عرف بالورع والتقوى ، فقد روى مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه قال: « قلت يارسول الله ألا تستعملنى؟ قال أبو ذر فضرب الرسول بيده على منكبى ثم قال. يا أباذر إنك ضعيف، فانها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها » .

وحقها فى نظر الاسلام : أن يقوم الوالى جهد استطاعته بكل شىء فيه مصلحة من يسوسهم ويرعى أمورهم.. فالحكم خدمة عامة وليس سيادة على العامة ، وما الحاكم الا مجرد وكيل عن أمته ، ومن المعروف بيننا أن الموكل هو الذى له السيادة على الوكيل وليس العكس ، حيث أنه مأجور على عمله . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن من استرعاه الله على المسلمين فقد وجب عليه ما يجب على العبد لسيده » وقال : « لو عثرت بغلة بالعراق لوجدتنى مسئولا عنها فقيل : لماذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لاننى مطالب باصلاح الطريق » فهذا مثال الحاكم العادل .

وقد أمرنا الله بالعدل فى مواضع كثيرة من كتابه العزيز فقال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون» وقال عز اسمه : « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ويطيب لى أن أذكر قصة تاريخية رائعة تتجلى فيها العدالة الحقة بصورة واضحه : جلس المأمون يوما للنظر فى مظالم الرعية ، فكان آخر من تقدم إليه وقدهم بالقيام امرأة عليها هيئة السفر وعليها ثياب رثة فوقفت بين

يديه وقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فنظر المأمون إلى القاضى يحيى بن أكثم فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله تكلمى فى حاجتك فقالت :

يا خير منتصف يهدى له الرشد
ويا إماما به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة
عدا عليها فلم يترك لها سبد
وابتز منى ضياعى بعد منعتها
ظلما وفرق منى الأهل والولد

فأطرق المأمون حينا ثم رفع رأسه وهو يقول :

فى دون ما قلت زال الصبر والجلد
عنى وأقرح منى القلب والكبد
هذا أوان صلاة العصر فانصرفى
وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعد
والمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا
ننصفك منه وإلا المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد انعقد المجلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على شمالك ، وأومأت إلى ابنه العباس . . فقال المأمون : يا أحمد بن أبى خالد خذ بيده فأجلسه معها فى مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس . فقال أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله إنك بين يدى أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير فاخفضى من صوتك . . فقال المأمون دعها يا أحمد ، فان الحق أنطقها وأخرسه ثم قضى لها برد ضيعتها وأمرها بنفقة وأوصى بحسن معاملتها .

ولهذا جعل الله تعالى لمن اتخذ العدل شعاره وديدنه فضلا عظيما وثوابا كريما جاء فى حديث رواه مسلم عن عياض المجاشعى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « . . . وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال » وروى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته (امرأة) ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى

حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

ولا ريب فى أن الولاية عبئها ثقيل ومسئوليتها خطيرة ، ولا يستطيع أن يوفيها حقها كاملا غير منقوص إلا الصابرون ذوو القلوب الفتية والعزائم القوية ، والهمم العالية ، والعقول الراجحة وقليل ماهم . . روى أن أحد الولاة فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث إليه رسولا يعرض عليه أمراً ذا شأن فوافى الرسول المدينة ليلا . فقال فى نفسه : ليس من الصواب أن أقلق أمير المؤمنين من منامه فى مثل هذا الوقت من الليل فانا أنام فى المسجد حتى إذا أسفر النهار أبلغت الرسالة ، ودخل المسجد لينام . . فسمع صوتا خافتا يناجى ربه فى ذل وخشوع ، فقال الرسول : السلام عليك ياأخا العرب ، فرد عليه صاحب الصوت السلام وقال : من أنت رحمك الله ؟ فقال : أنا رسول والى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين . فقال له : تعال هنا وقل ما عندك أنا عمر . . فتعجب الرسول وقص عليه سبب مجيئه إلى المسجد ، فقال له عمر : بئسما ظننت ياأخى كيف أكون المسئول عن هذه الأمة وأنام ؟ لو نمت نهارى لضيعت رعيتى ، ولو نمت ليلى لضيعت نفسى .

عبد المنصف محمود عبد الفتاح
واعظ مركز شبين القناطر

التواكل ليس من الإسلام

مر « سفيان الثورى » بقوم جلوس فى المسجد الحرام فقال : ما يجلسكم ، قالوا : نجلس فى بيت الله ونتنظر الرزق من الله ، ثقة بالله ، قال : لم يفعل هذا الأنبياء ولا غيرهم فقد كان الأنبياء يؤاجرون أنفسهم ، وكذلك آجر النبى نفسه ، فاعملوا وابتغوا من فضل الله ، ولا تكونوا عالة على المسلمين .